مع مؤلف قصة قرية ظالمة الدكتور محمد كامل حسين

يقدمه : محمد عبد الحليم عبد الله

انه « عاطفة العلم » ...

من الممكن أن يكون هذا هو أصدق وصف يطلق على الدكتور كامل حسين .

نعم ... « عاطفة العلم » !!...

وكنت أردد هذا بيني وبين نفسي وأنا أجتاز باب عيادته للمرة الأولى حيث كنا على موعد لنتحدث فى (الأدب) .

وكان ميعاد الذين يطلبون (العلم) لم يحن بعد ... ميعاد مقابلته لمرضاه . ورأيت الدكتور كامل حسين فى عيادته كما رأيته فى أى مكان آخر ... وجه هادىء ونظرة متطلعة الى فوق . ومع ملامح الوداعة ترى وقارا لا يمت الى التزمت ولكنه الثمرة الطبيعية للحياة الجادة .

ربما حياك باختصار أو رد على سؤالك باختصار ... وربما يحس شخص ما تبعا لذلك أن هذا الكاتب ينتمى ـ فى كل ما يصدر عنه ـ الى (الحقيقة العلمية) قبل أن ينتمى الى (الهزة الوجدانية) ...

لكنك حين تجلس اليه وتحدثه فانك لا تلبث أن ترى أمام عينيك ميزانا بكفتين تتارجحان فى شبه تعادل ... فى احداهما (جد الحقيقة) وفى الأخرى (رقة الخيال) . وعندئذ لا يسعك الا أن تأخذ من كل ناحية صفة فتطلق على العالم الأديب ، ذلك الوصف (عاطفة العلم) الذى حدثت به نفسى وأنا فى طريقى اليه أجتاز ساحة العمارة فى ظل رطب يميل الى الغموض كظل نوع من الأشجار الكثيفة الورق .

وكان اليوم حارا فتحدثنا عن الجو ...

ومن الجو الخارجى قفزنا فجأة الى جو آخر .. جو الحياة والنفس البشرية . والأجيال المتعاقبة التى يحمل كل جيل منها سمة خاصة به . هى علامته التاريخية وربما مفخرته الشخصية .

كنت فى هذه اللحظة أثنى على مظهره الصحى كتحية له بمناسبة عودته من راحة قصيرة على شاطىء البحر . فبدا لى أنه لا يهتم كثيرا بذلك حين رد وهو يشير بكفه اشارة مختصرة :

ـ أنا لا يعنيني المظهر الخارجي · المهم ما بالداخل ··

ولم يبتسم ولم يبد عليه أنه يتألم بل ولا أنه يحمل عتابا لأحد ولا لشيء ·

عجبت ·· كانت عبارته أشبه شيء بالتقارير العلمية ·· مع أنها مجال ـ هي في حد ذاتها ـ للفخر بالنفس أو التذمر من الحياة ·

ولم أستطع أن أستشف ما وراء هذه العبارة ما دام الدكتور قد نسبها الى نفسه · فاخذت أردد شطرها الأخير دون أن أقول شيئا · ونظر الى الدكتور فاحس انني أطلب كلامه بصمتي فاستطرد :

ـ لكنني راض عن حياتي !!

ـ كل الرضا ؟!

ـ أعتقد أنني لو عشتها مرة ثانية فلن أفعل أحسن من ذلك ···

وتركني أبتسم · لم يلمح ابتسامتي · كان ينظر الى دولاب كتب في حجرة مكتبه وعيناه لا تقولان شيئا · وكفه تتحرك بالاشارات المختصرة كأنه يخاف أن يصدم شيئا · كان لا يزال يقول :

ـ ······ فلن أفعل أحسن من ذلك · نعم · لكن شيئا واحدا ربما أحزنني ولو أنه غير محدد ـ كما أحزن بعض الأدباء في نهاية عمره فقال : « انني نادم على فرص حنان كان من الممكن أن أمنحها للناس » ، مع أن ذلك الأديب لم يكن قاسيا ··

وفي هذه اللحظات القصيرة شعرت أن نبرة الأديب الذى أمامي قد تغيرت ···

لم ترتفع درجة صوته ولم تنخفض وهو يقول هذا لكن ألوانا من المعاني غلفت كلماته · وجرت في بشرة وجهه حمرة خفيفة فرأيت كيف يستطيع قليل الناس صون ما بداخلهم من فرحة أو ألم ···

لكن كلمة «حنان» علقت بأذني ··· وقلبي ··· مثل بقية صدى صوت رددته أروقة المسجد · وكان وقتئذ على يميني باب مفتوح وخلف ظهري باب حجرة المكتب فتسلل بصري بنظرة جانبية لأرى ما في الحجرة الأخرى · فرأيت السرير الذى ينام عليه مرضاه ساعة (الكشف) وعليه أغطيته التقليدية وأمامه كرسي منخفض جدا ليساعد المريض على الصعود · فقلت بيني وبين نفسي : « لقد منح مرضاه هنا آلاف الآلاف من فرص الحنان ··· لاشك في ذلك » ·

لكن الأهم من ذلك هو أنني رأيت ديوان الشاعر : « عمر بن أبي ربيعة » على مقربة مني · والى جواره حقيبة سوداء من نوع « السرفيبت » فحاول خيالي أن يجمع أشتاته ليؤلف صورة متكاملة للدكتور كامل · فاذا بي فجأة أثب الى ناحية بعيدة من الدنيا ··· لألمح هناك صورة لأديب آخر · كان همه طوال حياته « بناء شخصيته » قبل أن يكون مهتما بوضعه كشاعر مرموق وكان يرى أن الشخصية الانسانية لها غذاء نادر يكلف صاحبه كثيرا · وبناء الشخصية عن طريق تناول هذا الغذاء ··· يأكل سنوات العمر · لكن ذلك ضرورى ··· ضرورى أن يعرف الانسان الأدب والعلم والفن ···

وهكذا فعل الشاعر الألماني « جيته » الذى درس الجيولوجيا والنبات وأشياء كثيرة ··· لالشيء الا لبناء الشخصية ··

ونظرت لديوان عمر بن أبى ربيعة وسألت الدكتور كامل

ـ هل ستكتب عنه شيئا ؟

فقال :

ـ سأكتب بعض بحوث كما فعلت مع المتنبى وأبى العلاء ·

ـ كنا نحب أشعاره ونحن شبان · وطالما تغنينا بها ·

ـ وأنا أحب شعره ولذلك سأخضعه للدراسة العلمية ·

كنا قد تكلمنا فى أشياء كثيرة قبل أن ألقى اليه بالسؤال التقليدى عن ذكرياته مع قصته «قرية ظالمة» فحدثنى عما سماه (بالهرولة العقلية) قاصدا سرعة الانتاج عند بعض الناس · وعما سماه بالطفولة فى سن الكبار ··· قاصدا المحاكاة الخالية من الذاتية والشخصية عند بعض الذين يكتبون مثل بعض المشاهير · فهو يرى أن الذى يكتب مثل « سارتر » مثلا لأنه فتن به ··· يرى أنه لا يقدم شيئا نافعا بالمحاكاة ·

وهو يحب الابتكار ويحبيه · ويرى أن جيل الثلاثينيات كان أكثر تؤدة وتأنيا وابتكارا من الذين لحقوه بعد ذلك ·

فقلت للدكتور كامل :

ـ جيل الثلاثينيات كان بادئا فى انشاء أدب مصرى وفكر مصرى · كان الناس عطاشا للعلم عطاشا للحرية ولمجرد فكرة التجديد · وكلما اشتد الطلب ـ لاأقول قل العرض ـ بل أقول : « عندما يكون الطلب ملحا فان أى شىء يقدم يصبح مقنعا » · وفى سنة ١٩٣٩ وقعت الحرب الثانية الطاحنة التى طحنت كثيرا من القيم والآراء ولم تستطع أن تلد شيئا الا (القلق) العام · فجيل الاربعينيات تنفس هذا الجو · ومع كل ··· فلكل جيل سمة !!

ثم ··· والآن ··· أريد بعض ذكريات عن قصة « قرية ظالمة » ·

ـ فقال الطبيب الأديب :

ـ كان ذلك فى صيف سنة ١٩٥٢ · وكنت على الباخرة فى طريقى الى سويسرا · وقصة قرية ظالمة هى أول عمل روائى كتبته · كنت ألجا الى «الكابينة» ومعى أوراقى ·· وكنت أسجل فى لحظات الانفعال نتاج ومضاته ··· أكتب بلا ترتيب ·

ـ بلا ترتيب ؟!

ـ ربما كان الفصل الأول من القصة هو آخر ما كتبت لأنى أودعته هـدف الرواية كلها ··· ثم أخذت بعد ذلك أرتب الفصول ··· ثم قدمتها للمطبعة سنة ١٩٥٤ ·

ـ هذا العمل الأدبى الذى نال جائزة الدولة كتب بالطريقة التى كتبت بها قصة « ذهب مع الريح » فصول مفرقة ثم رتبت وأنا أذكر قصة « ذهب مع الريح» لشهرتها بصرف النظر عن أخطاء فيها من وجهة النظر الانسانية · لكن قصة « قرية ظالمة » أخذت اتجاها انسانيا مسلما به · فأنا أذكر على سبيل المثال الرأى الذى عرضتموه فيها عن الحروب واشعال الحروب ··· والسبيل المؤدى الى أن التغلب على هذه النزوة التى تجعل الانسان يقتل الانسان « جماعات » فقد اقترح أحد أبطال قصة «قرية ظالمة» أن يكون معلن الحرب هو أول رجل يموت فى الحرب !! ··· وهذه الفكرة تحمل معنى « واقعيا » يكاد يكون فى وضوح الارقام اذا نفذ البشر هذه الفكرة وهى أن يموت بطريقة ما من يعلن الحرب ··· يموت أول الناس ·

ثم هى بعد ذلك تحمل معنى آخر هو أن الذى يعلن الحرب وهو يعلم أنه هو أول من يموت فيها لابد أن يتخذ أحد موقفين لا ثالث لهما : موقف المقتنع الذى يموت فى سبيل الفكرة · أو موقف من يحرص على حياة الناس من أجل حياته هو · والبشرية هى الكاسبة فى أى من الموقفين · لكن ···

وسكت قليلا فابتسم الدكتور وهو يسأل بلطف :

ـ لكن ماذا ؟!

ـ انها بلغت درجة من التركيز جعلتنى أقرؤها قراءة الدارس · فهل هذه هى طبيعة الكاتب اذا كان عالما ؟

فأجاب فى تواضع :

ـ كل ماأعلمه هو أننى كنت أريد أن أكتب رواية «لاتقرأ فى القطار» ··· عمل يقرأ فى تمهل · نشأ عندى من اعتقادى أن الجرائم الكبرى فى تاريخ الانسان انما ترتكب بواسطة «مجموعات» فلا يكون المسئول فيها واحدا «فالمجموعة» قادرة على فعل الشر لانتفاء نسبة المسئولية الى واحد معين · كذلك ··· اذا تصورنا أن مسئولية الجريمة وزعت على أشخاص المجموعة التى ارتكبتها ، فانها بلا شك تصبح صغيرة بسبب التفتت · فلا يوجد اذن ما يقلق الضمير · والدليل على ذلك قد يجىء أيضا من تصورنا عكس الموقف ··· أقصد من نظرنا الى الوجه الآخر من القضية · فهل من الممكن أن نتصور أن مجموعة كبيرة من الناس تفعل (الخير) بنفس الطريقة التى ترتكب بها (الجريمة) ··· أظن ذلك محالا ·· وهكذا وقعت جريمة صلب المسيح فى قصتى ··· وقد حاولت أثناء عرض جريمة الصلب أن أعطى صورة معينة ··· صورة صحيحة من وجهة نظر المسلم والمسيحى معا ·

على أن الفكرة الاساسية فى الرواية هى ما سبق أن تحدثت عنه ··· هى أن

الجرائم الكبرى لايمكن أن ترتكب الا بواسطة مجموعة من الناس . وأن المجموعة لاتحس فداحة المسئولية من ارتكاب الجريمة ولذلك فهى تفعلها ببساطة .

– على كل حال أنا أعتبر هذه القصة دعوة كبرى للحب والسلام وقد رأيت فيها نماذج أعجبتنى كما أعجبت بالحذر البارع الذى عرضتم فيه لعلاقة المسيح بمريم المجدلية ... انك تحب الانسان ... أنا أحس ذلك .

– اننى أفضل أن يبحث الانسان عن أفضل ما فى الانسان وأستطيع أن أقول: ان هذا هو سلوكى الشخصى .

وسكت قليلا ونظر الى بلورة المكتب ثم رفع رأسه وعاد يقول فى ابتسامة هادئة :

– أنا أكره الفضائل المرهقة ولا أومن بها

فسألت فى شوق :

– وما الفضائل المرهقة يادكتور ؟

– هى أن أطلب من الناس ما ليس فى امكانهم . كأن أطلب من الصديق تضحيات فى سبيل الصداقة .

يجب أن أطلب من الصداقة مستوى معقولا من الفضائل ولو طلبنا البطولة من كل الناس لتغيرت حقيقة « البطل » ولأخذ العالم وجها آخر .

قلت :

– نعم . هذا عدل . وهى نظرة معقولة الى الانسان .

ثم قلت فى نفسى : هذا هو سر الراحة التى يحملها مؤلف قصة «قرية ظالمة» . سر الهدوء النفسى والحب للناس . انه لا يحمل عتابا ... فكيف يحمل كرها . انه يحاول أن يرى فى الانسان أحسن ما فيه ثم هو بعد ذلك لا يطلب منه « فضائل مرهقة » . وأخذت أقول فى نفسى : هل هذا أثر من آثار التفكير العلمى ؟ لكننى وجدت نفسى أرفع صوتى سائلا :

– هل من الممكن أن تحدثنا عن العلاقة بين العلم والادب بصفتك قد اخذت من الاثنين بنصيب كبير ؟

فقال :

– العلم فى العصر الحاضر على الخصوص قد وسع آفاق الأدب الى حد كبير . أما أيام كان العلم مقصورا على الطبيعة البحتة فان فائدة الأدب منه لم تكن كبيرة . وقد أصبح العلم اليوم متصلا بكل شىء حتى النفس الانسانية والسلوك الانسانى . واذا كانت مادة الأدب هى النفس والسلوك فلا بد أن يستفيد الأديب من كلمة العلم فى النفس والسلوك وبعد مرحلة الاستفادة يصبح الأديب عالم نفس أكبر من عالم النفس . وتمسى كلمته أكثر ذيوعا وخلودا بالنماذج الحية الحقيقية التى يصورها .

وأنت معى فى أن الخيال وحده لا يمكن أن يكون زاد الأديب ولا سلاحه ولا متاع سفره • فالعلم يكسب الخيال أجنحة جديدة يجعله بالتالى أكثر قدرة على التحليق والارتفاع وجوب الآفاق والكشف عن البدائع •

ـ هذا عظيم • لكن ما رأيك وأنت عالم فى قول الذين يطلبون من كاتب القصة مثلا ••• أن يلاحق بانتاجه خطوات العلم • فهناك ناس يقـولون : نحن فى عصر الفضاء وعصر الذرة • فكيف لاتكون عندنا قصص تصور هذه الاحـداث • كيف نظل نكتب عن الانسان (فى الارض) فى الوقت الذى يجوب فيها الفضاء فى طريقه الى الكواكب الأخرى ••• كيف نكتب عن الانسان (ذى الوزن) وندع الانســان وهو فى حالة (فقدان الوزن) ؟! فهل ترى أن خطوات الأدب لابد أن تلاحق خطوات العلم ••• أو بعبارة أخرى هل يجب أن يسكن الأديب نفس المنطقة التى يسكنها العالم فى الارض أو فى السماء ؟

فرد الدكتور كامل وكأنه يدفعنى عن السقوط فى هوة :

ـ العلم ليس الاختراع ولا المخترعات ولا الفضاء ولا القمر • العلم هو أسلوب التفكير المؤدى الى كل هذا ••• العلم ليس (الحقيقة) بل ان العلم حين يصبح حقائق يصير فى حكم المنتهى ••• أهم مافى العلم ليس هو (ما تعلم) بل هو (الطريقة) التى توصلك الى (ما تعلم) ••• العلم الحى هو التفكير العلمى وليس المعلومات •• والذى يجب أن يتسلح به الأديب هو (التفكير العلمى) ومطلوب منه أيضا • أن يكون على معرفة بميادين العلم فيكون عنده فكرة عن ميادينه لاعن حقائقه •

ـ كما قالوا : ان النزهة هى الطريق الى الحديقة وليست الحديقة ، فان العلم هو الطريق الى العلم وليس المعلومات •••

ـ تماما • وقد عشنا زمنا كانوا يقولون فيه : كيف نقول الشـــعر فى الابل ووصفها ونحن فى عصر الطيران ؟!

وهذا الكلام عجيب • فليس المطلوب أن نصف الطائرة وفقط ، وينتهى الأمر • فقد نصف الطائرة بعقلية من لايعرف الا الابل • لكن المهم هو أن نعيش بعقلية عصر الطيران وعند ذلك سنصف الابل وصفا جـديدا غير الوصف الذى سجله شـــعراء البادية والجاهليون •

وهذا الكلام يجرنى لفكرة أخرى • هى فكرة المادة والروح • فأنا لا يعجبنى من يقول « معنويات الشرق ومادية الغرب » لانه لاتوجد روحانيـــة أقوى من روحانيـــة البحث عن الحقيقة ••• روحانية العلم •

والمثابرة على الوصول الى أعماق الطبيعة يمنح الايمان والاخلاص والصـــدق بكمية كبيرة • ولذلك فاننى أرى فى التقسيم خطأ منطقيا « فمعنويات وماديات » ليس تقسيما لان الروحانية نتيجة مؤكدة للبحث العلمى •

سألت :

ـ بعض الباحثين يصابون بالالحاد وبعض الباحثين يكسبون ايمانا عميقا ٠٠٠ أليس هذا صحيحا ؟

فقال :

ـ يجب أن نفرق بين المتبوع والتابع ٠ فالمتبوع عالم لابد أن يكون فى أرقى درجة من الصدق والايمان ٠ والتابع ليس الا (محضرا) قد يجوز عليه ما يصيب الملحدين ٠

وسكت الدكتور كامل وجعلت أنظر اليه ٠ كان قبل ثانية يتكلم بحماسة لكن الهدوء الفطرى عاد فكسا وجهه ٠ ولم يكن على ملامحه آثار جهد كأنه يتحدث عن الأسعار لا عن الافكار وعندئذ ألقيت اليه بسؤال لم يخطر على باله ٠ قلت :

ـ انك لاتدرى أى قدر من الجدية ، يحيط بك الى درجة اننى ـ واسمح لى ـ ما كنت أظن أنك تحمل مثل هذه الرقة ٠ لقد ذكرتنى بما قاله بعضهم عن شعر أبى تمام حين وصفوه بالنبع العذب الذى تحيطه بعض الصخور ٠ لكن كل من يجتاز سياج الصخر سينسى الصخر وهو ينهل من الماء ٠ كذلك أنت ٠ فهل لهذه الجدية الدائمة أصل فى طفولتك التى لانعرف عنها شيئا ؟

أنت أديب تكره الأضواء بدليل أنك متألم من هذا الثناء الصغير ٠ وهذه طبيعة ٠ طبيعة الذين يعملون فى صمت ليبنوا شخصيتهم أولا وقبل كل شىء كما فعل (جيته) وهاأنذا أراك تبحث فى شعر ابن أبى ربيعة وقد بحثت فى المتنبى وأبى العلاء ٠ وكتبت الرواية ولك فى النقد اللغوى خطرات جديدة ٠ وفى تعريب المصطلحات العلمية أفكار وآراء ٠ وبعد ذلك فأنت لاتبحث عن الأضواء ٠ اذن فحدثنى عن طفولتك ٠

لكن الدكتور كامل لم يخرج عن طبيعته ٠ فقد كانت اجاباته مختصرة واشارات كفه قصيرة المدى كأنه يخاف أن يصدم شيئا ٠ وأخذ يحدثنى عن سنوات عمره الأولى وكأنه يتحدث عن شخص لايعرفه ٠

ـ لم أشعر بالطفولة ولا حتى بالشباب ٠ كنت دائما أجد نفسى مع ناس أكبر منى وأعلم منى ٠

وابتسم ٠٠ واستطرد :

وهاأنذا فى الستين لاأحب أن أعاشر الا من هم فى الثمانين ٠

فتذكرت حبه لأحمد لطفى السيد ولطه حسين ٠

ثم قلت له غير مجامل :

ـ ما أظن أنك فى الستين ٠ ان هذا لايبدو واضحا ٠ انك فى الاربعين وتفكيرك فى عمر الشباب ٠٠٠

ـ على كل حال كل ما أحب أن أذكره أن من حولى كانوا يرهقوننى بالدراسة كانوا يريدون أن يجعلوا منى شيئا هاما • وهذا هو سر الجدية التى تقول عنها •

ووجدت نفسى فى بيت ملىء بالكتب لان والدى كان مدرس لغة عربية • واذكر اننى قرأت (سيرة ابن هشام) وأنا فى سن صغيرة ولا أعى شيئا مما أقرأ •

وقد أثر هذا فى سلوكى أثناء الكتابة • فانا أكتب على طبيعتى وأحذف ثلث ماكتبت ••• أميل للاختصار لا للاضافة وللايجاز لا للتطويل أو الاطناب •

واستطرد باسما :

ولست أفعل فعل المتنبى الذى ما حذف بيتا قط بعد كتابته وقد عزوت هذا الى بخله قبل كل شىء •

عندئذ نظرت فى ساعتى فرأيت أن زمنا طويلا قد مضى • ودخل علينا المريض الاسمر ومر بجانبنا وخرج وتناهت الى أصوات من صالة العيادة فأحسست أن طلاب (العلم) قد حضروا ••• المرضى الذين يطلبون الشفاء ـ وكان الباب المفتوح الى يمينى لايزال مفتوحا والسرير فى وسط الحجرة الاخرى فى مكانه عليه أغطيته التقليدية وأمامه الكرسى المنخفض وهو بانتظار المريض (نمرة واحد) •••

فصافحت الدكتور محمد كامل حسين وخرجت بعد أن ألقيت نظرة على ديوان عمر بن أبى ربيعة • وعندما كنت أجتاز الصالة كانت الانوار مضاءة وعيون قلقة تنظر الى ما كان يعنيها أكثر من أن أتلقى (الطبيب) مثلما دخلت أنا ولا يعنينى الا أن ألقى (الاديب) •

وكان الظل الرطب فى فناء العمارة قد تحول الى عتمة لم يبددها بعد نور مصباح • لكننى كنت أرى طريقى بوضوح وكنت أحس ببهجة نفسية (على أساس علمى) سرها أننى اكتشفت ••• اكتشفت رقة الأديب خلف جدية العالم •